الاسلام والقوميات (٢)

حاول القوميون ربط القومية بالاشتراكية رغم ان القومية دعوة لا علاقة لها بالاقتصاد وذلك بهدف جذب البعض اليها

تحدث فضيلة الشيخ سليمان المدنى فى الحلقة الاولى من هذه المحاضرة عن اصل نشوء فكرة القومية والعنصرية والاقليمية، وكيف ان هذه الدعوة انتشرت بين ابناء المسلمين ، وأدت بالناس الى الايمان بالمعاني العنصرية والفكر العنصري رغم ان الشريعة الاسلامية ليست شريعة قومية وانما دين الجميع دون النظر الى اعتبارات اقليمية أو عنصرية .. وذكر فضيلته ان الاستعمار استطاع ان يستغل انتشار الفكرة الجديدة للقومية بين أبناء المسلمين وان يجعلها سيفا يحارب به الافكار الاسلامية وساعد على ذلك ظلم الدولة العثمانية للمسلمين ثم سقوطها .

وفى هذا العدد ننشر الجزء المتبقى من المحاضرة القيمة ....

ان فكرة القومية في العصر الحديث عندما وجدت بين المسلمين ، وجدت بدفع من الاستعمار الغربي بكلا شقيه ، واستمر الأمر أو الصراع بين الدول الاوروبية والدولة العثمانية ، وكانت الشعوب الاسلامية هي أدوات اللعب في هذه الحرب حتى سقطت الدولة العثمانية بانتهاء الحرب العالمية الأولى . بعد سقوط الدولة العثمانية وقيام دولة اتاتورك ، وسيطرة حزب الدونمه اليهودي على تركيا تمكنت كل الأقاليم الخاضعة للدولة العثمانية من أن تكون لها منظماتها السياسية الخاصة بها ، أما معظم الشعوب فقد خضعت لاستعمار بريطاني أو فرنسي .

في هذه الفترة جاء جماعة من العرب يدعون الى الفكرة القومية باعتبارها سلاح موجه ضد الاستعمار الغربي فالاستقلال هو مطلب قومي مهم ، وعندما تطلق كلمة الاستقلال في مفهوم ذلك الجيل لا يعني أكثر من خروج الجيوش الأجنبية عن الأرض ، لا يعني أكثر من ان يتسلم جماعة منهم زمام السلطة في الاقليم أو في القطر ، والاستقلال عندهم ليس كما نفهمه اليوم ، انه استقلال في الفكر وفي السياسة وفي الادارة والعمل ، ورات الدول الاستعمارية انها لن تتمكن من البقاء بجيوشها طويلا فوق أراضي المسلمين ، فرات ان تسلم هذا الفريق قيادات الأمة في جميع الأقطار التى استعمرتها واحتلتها ، فوجدت الدول العربية الحديثة ، على ان الاستعمار وهو يخشى ان ينقلب سلاح العنصرية ضده ، بان يتحد العرب جميعا أو يتحد الهنود جميعا أو سكان افريقيا الاسلامية جميعا ، أوجد أوضاعا مختلفة في كل اقليم على حدة ، الأوضاع القانونية والاقتصادية والادارية تختلف بين دولة عربية وأخرى ، وتكون سدا منيعا وعائقا كبيرا من ان يقوم حتى شبه اتحاد بينهم ، اضافة الى تشجيع أصحاب النزوات الذين في نفوسهم شهوة الحكم الى التنافس والتصارع على حكم كل اقليم ، ووجد التناقض (وأركز أنا على البلاد العربية) لأن ما عشناه من أوضاع بين دول القوميين أنفسهم وما عايناه باعيننا يكفي للاستنتاج عنه ونكون أكثر دراية به من درايتنا باقطار افريقيا أو الهند

المحاضرة التاسعة والثلاثون لفضيلة الشيخ سليمان المدنى

أو جنوب شرق آسيا أو غيرها من البلدان .

كان الصراع على أشده أيضا بين دول القوميين ، بين الحكومات التى يتزعمها المناضلون بالقومية مما أدى الى تبلبل أفكار الجماهير وتقرب شيئا فشيئا من الوعى على ذاتها ، والتعرف على حقيقة هذه اللعبة ، وهكذا ظهرت فئات جديدة تطالب بالوحدة الاسلامية وتدعو الى العودة الى الحياة الاسلامية ونبذ الأفكار الجاهلية والعنصرية ، هنا لا بد للقوميين من ان يحاولوا اثبات فكرتهم وان يتشبهوا باليهود في تحريف نصوص الكتاب ، وفي تفسير التاريخ الاسلامي ، فظهرت كتب جديدة تدعو الى الاشتراكية العالمية والقومية العربية ، وعلى الرغم ما بين العنوانين من تناقض الا ان المطالع في المكتبات لا يعدم من وجود كثير من هذه المؤلفات تحمل هذا العنوان ،

اذ لا علاقة للقومية بالاشتراكية ، فالاشتراكية نظام اقتصادي والقومية دعوة لا علاقة لها بالاقتصاد (ولا فرق بين الدولة القومية ان يكون نظامها رأسمالي أو اشتراكي أو غير ذلك من الأنظمة ، على الرغم من كل ذلك وجدت عناوين من هذا القبيل ليس الغرض منها الاشتراكية وانما الغرض منها ايجاد تفسير جديد للحياة والاسلام يبث في أذهان الناشئة ، فالتاريخ البشري عند هؤلاء يقوم على أساس اقتصادي ، وان هذا التاريخ مر بمراحل ، احدى هذه المراحل هو الاسلام وان الأمة العربية هي أمة عريقة وموغلة في القدم ، وانها تصنع الرسالات للأرض ، وانها أمة لا تنفك دائما عن رسالة وان الاسلام هو رسالة عربية نتج عن الذات العربية في مرحلة معينة من الزمن ، وان محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذى دعا الى الاسلام كان عبقريا من عباقرة الأمة العربية ، وحامل مشعل رسالتها ، واذا كان محمداً في زمانه كل العرب ، فينبغي ان يكون كل العرب اليوم محمدا ، ويمضي هؤلاء الكتاب في تحريف التاريخ الاسلامي حتى يقول الدكتور عبدالعزيز الدوري في كتابه «الجذور التاريخية للقومية العربية» ان التوحيد الذى دعا اليه الاسلام لا علاقة له بالتوحيد اليهودي أو المسيحي ، لا علاقة له بالتوحيد اليهودي الذى يحظى ببعض الرعاية الفارسية ، ولا علاقة له بالتوحيد المسيحي الذى تحميه الدولة الرومانية ، وانما كان توحيدا يعود الى التوحيد السامي القديم ، وأعتقد ان كذب مثل هذا الادعاء واضح لمن يقرأ سورة البقرة من القرآن . فالحوار الذى يبديه القرآن مع بني اسرائيل ومع أهل الكتاب جميعا بما فيهم النصارى كله واضح على ان الاسلام يدعى بأن أصول تلك الأديان كانت أصولا حقيقية ، وان التحريف إنما دخل من حملة الكتاب بغيا بينهم ، ولست أفهم ماذا يعني الدكتور من التوحيد السامي القديم ، فليست هناك دعوة دينية تعرف بالسامية ، هناك دعوة

عنصرية تعرف بالسامية ، ولكن لا توجد هناك دعوة دينية تعرف بالسامية . لقد كرر القرآن قصة موسى «ع» في كثير من المواضع - وحاور اليهود ووصفهم بانهم يغلون في دينهم ، وانهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه وانهم لو جاءوا بالتوراة الحقيقية التي انزلها الله على عبده موسى لوجدوا فيها ما يدعوا اليه محمد ﷺ ، وعلى الرغم من وصف القرآن نفسه من انه كتاب مصدق لما معكم أي مؤكدومؤيد لما معكم من الكتاب التوراة والانجيل ، ويأتي هذا الرجل ليدعى انه لا علاقة للتوحيد الذي دعا اليه الاسلام وبين التوحيد الذي دعت اليه الأديان والشرائع غير العربية كشريعة موسى وشريعة عيسى «ع» . ويبرر ثالث وهو لا يستطيع ان يصل الى هذا المستوى وربما كان احترامه لنفسه أكثر من غيره من الكتاب يبرر وجود الدولة القومية بأن القرآن لم يفترض ان يكون المسلمون كلهم دولة واحدة ، وإنما افترض ان يكونوا دولا متعددلا على ان تتعاون هذه الدول فيما بينها ، وان الاسلام لم يفترض ان يكون المسلمون كلهم مجتمعا واحدا وامة واحدة ، وانما مجتمعات مختلفة وأمم مختلفة على ان تتعاون فيما بينها . يقول الدكتور محمد ياقوت في كتابه القيم الذي عمله في القانون الدولي (ان النص القرآني يفترض قيام جماعات اسلامية ذات قيادات مستقلة ومنظمات خاصة) كيف ؟ .

يأتي بالآية الكريمة وهو قوله تعالى : «وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيىء الى أمر الله ..» يقول ان هذا النص انما دعا الى منظمة عالمية اسلامية تكون بمثابة جامعة للدول الاسلامية أو للشعوب الاسلامية . ولم يدعو المسلمين الى وحدة حقيقية واحدة أو اتحاد فيدرالي أو غير ذلك لانه افترض الحرب بين الجماعات الاسلامية ، وهذا يعنى ان القرآن يفترض وجود مجموعات مسلحة في ضمن الأمة الاسلامية ، ووجود المجموعات المسلحة يقتضي قيام الدول الخاصة ..

ان هذا الرجل عندما أراد ان يتكلم عن هذه الآية الكريمة ، لم يلاحظ الظرف التاريخي والواقع التشريعي للمسلمين . فأولا ان المسلمين في بداية الأمر لم تكن لديهم جيوش من المرتزقة تأخذ اجرا شهريا ، فعليه ان يحمل السلاح وقت الحاجة .

فالأمة بأسرها كانت مسلحة ولا يخلو انسان من وجود السيف والرمح في بيته ، على ان المعاني العشائريةلم تكن قد اندثرت في بداية الدعوة النبوية ، ولا مانع ان تشب حرب وفتنة بين عشيرتين او قبيلتين او فئتين ، وكل منهما مسلح يحمل السلاح ، وكاد هذا ان يقع حتى في زمن الرسول ﷺ عندما قامت الفتنة بين المهاجرين والانصار ، وتفاخر كل منهم بعشيرته ونسبه وامتشقوا السيوف ، هذا هو الواقع التاريخي في البداية . وكذلك لم يلاحظ هذا الرجل الواقع التشريعي للآية على ما ينبغي ومن أجل ذلك يفترض الفرض ثم يحمله هذه الآية ، على انه في

الشباب المسلم بعلمه وايمانه استطاع ان يتصدى للدعوات الاقليمية والعنصرية وان يتقدم عليها اجيالا من الفكر

قوله تعالى : «يا أيها الناس ان خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ..» ان هذه الآية كافية لأن تبين له المعنى من الآية التي حاول الاستدلال بها في مجال بحثه ، فهذه الآية يفهم منها ثلاثة أمور :

ان أساس الحياة البشرية هي قيام الأسرة «انّا خلقناكم من ذكر وانثى» ولا شك ان الذكر بما هو ذكر يختلف في تكوينه البيلوجي وفي بعض خصائصه المميزة عن الأنثى بما هي أنثى ، هذا الاختلاف بين الذكر والأنثى هو الدافع الأساسي لاستمرار الحياة ، والتعاون فيها على تكوين الاسرة وانجاب الأطفال وتربيتهم ، هذا الاختلاف لم يستدع البشر ان يتنابذ الرجل والمرأة أو يتفارقا أو ان يرفضا الاجتماع والتعاون بينهم «وجعلناكم شعوبا وقبائل) أيضا السكنى في مكان معين أو ضمن محموعة معينة أجيالا متعاقبة تكسب الساكنين خصائص اقليمية وفكرية وجسمية وحتى في اللون تميزه عن خصائص الفئة الأخرى هذه الخصائص الاقليمية أو الفكرية هي أيضا لافتراقها عن الأقوام الآخرين مدعاة للتعاون من أجل اقامة الحياة على الأرض ومدعاة للتعارف ، كما ان الاختلاف بين الذكر والأنثى هو السبب الرئيسي لاستمرار الحياة الزوجية وتكوين الأسرة ، كذلك هذا التمايز الذي يحصل بين سكان الأرض من بني الانسان ينبغي ان يكون هو الدافع لاستمرار الحياة التعاونية واستمرار الوحدة الحقيقية بين بني الانسان

«لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم» .. ليس هناك مقياس يقوم على أساس مكاني أو على أساس من اللون أو من اللغة أو من غير ذلك ، وانما مقياس التفاضل بينكم ينبغي ان يكون هو التقوى ، فهذه الآية لو كان قد لاحظها كما ينبغي ان يلاحظها لعرف ان تلك الآية لا تفترض وجود دول متعددة ، على اننى استغرب من هؤلاء الكتّاب الذين يأتون بمثل هذه الاراء وهم بمنظر ومسمع من المسلمين ومما كتبه المسلمون طيلة هذه الأجيال ، اذ لم يدع

اي مذهب ولا اي مفكر من مفكر ي الاسلام على الرغم من تباينهم وعلى الاختلاف والتضارب بينهم وعلى التطاحن الذى حصل بين الفرق والمذاهب الفكرية والفئات الاجتماعية بين المسلمين لم يات عالم كلامي او فقيه أو غير ذلك من اي فئة ليدعى ان الاسلام لم يفرض على أمته مجتمعا واحدا ، وانما أجاز لهم التفرق والتشتت وعلى أساس عنصري .

الواقع ان هؤلاء الكتاب إنما يهدمون فكرة واحدة هي محاولة تزوير الوعي الاسلامي الذى حصل في اعقاب الحرب العالمية الثانية، الوعى الذى إنبثق بين شباب المسلمين للتلمس على ذاتهم وللتطلع الى واقعهم، والى محاولة النهوض بامتهم، هذا أمر لا يعجب الاستعمار الغربى بشقيه جاء هؤلاء ليخدموا هذا الاستعمار الغربى بشقيه، ومن اجل ذلك يختلفون في الدعوة القومية فمنهم من يرى ان الوحدة القومية ينبغى ان تكون هى الوحدة النهائية التى لا تقسمها كف فاصل .

ومنهم من يرى بان الوحدة القومية هى تمهيد للوحدة العالمية فى نطاق الثورة العالمية او الاشتراكية .

لكن ظنى ان هذه الدعوات، هذه الافكار اصبحت اليوم تعرض كما تعرض المتاحف الاثرية والشباب الاسلامى تقدم عليها اجيالا من الفكر، سنين كثيرة أصبح التباعد بين أصحاب هذا الفكر وبين الجيل الجديد فى الامة الاسلامية خاصة فى البلاد العربية .

في ايران أيضاً وبعد الحرب العالمية الاولى جاء الانجليز برضا خان ليكون حاكماً وداعياً الى قيام القومية الفارسية محاولا إحياء اللغة البهلوية، معاقبا لمن يستعمل لفظاً من اللغة العربية، ما هو الهدف من هذه الدعوة التى قام بها رضا خان ؟ . إيران لم تبتل بالاحتلال بجيش اجنبى كما ابتليت به بعض الشعوب الاسلامية حتى يمكن أن يفسر ذلك بانه كان يريد ان يحارب الاستعمار على اساس من المعنى القومى، الواقع ان رضا خان لم يكن يقصد الا وضع الحواجز النفسية بالاضافة الى الحواجز المصطنعة التى جعلتها الفرقة الجاهلية بين سائر الشعوب، جاء هذا الرجل ليضع الحواجز النفسية بين الشعوب الايرانية وسائر الشعوب الاسلامية، وبذلك ينعزل جزء كبير وقوى وغنى جدا من الامة الاسلامية من ان يكون فعالاً ومتعاوناً مع سائر الشعوب المحيطة به، وعلى هذا المنوال سار إبنه حتى اعلن فى النهاية ما يسميه بالثورة البيضاء والتى تخالف فى نصوصها الصريحة التعاليم الاساسية والعقائد الضرورية فى الشريعة الاسلامية.

الفكر القومى وجد فى المنطقة بأسرها بدءاً باتاتورك وإنتهاءاً برضا خان مروراً بالقوميين، العرب فى معظم مدارسهم الفكرية، إنما هو لتزوير الوعي الاسلامي الذي حصل للأجيال الاسلامية بين الحربين وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية .

ولكن أصبح الفكر القومى الفارسى بفضل الوعي الاسلامي الجديد في ايران، كما أصبح الفكر العنصرى بفضل وعي الجيل العربي الجديد كله أمور أثرية تقرأ فى التاريخ ويقال حصل كذا وجاء شخص اسمه كذا، كما نقرأ الآن عن الشعوبية والقبلية ..